موقع الجبال
في تصوير القرآن الكريم

دراسة بلاغية

بحث مقدم من

د/ عبد الله عبد الخالق محمد

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنين بالديدامون شرقية

مقدمة

يقف الإنسان ،أي إنسان مبهورا أمام الجبال لضخامتها وعلوها ، وإذا كان ذلك موقف العين الباصرة فكيف بعين الأديب العالم ؟.

إن شعراء العربية من قديم تأملوا الجبال شموخا وعزة وكبرياء وأنفة واستلهموا منها كثيرا من هذه الصفات كما يقول ابن خفاجة الأندلسي عن الجبل :-

وقور علي ظهر الفلاة كأنه ∴ طوال الليالي مفكر في العواقب [1]

وغيره كثير من الشعراء أما العلماء فهم يتأملون صنعتها وكيانها ويبحثون عن أسرارها ، وقد كان من واجب العلم أن يربط عظمة الجبال بعظمة من خلقها ، ولذلك جبذ القرآن فكر الإنسان وحواسه إلي الجبال وأمثالها من المخلوقات التي أودع الله فيها عظمة الخلق والتكوين لأنها براهين دالة عليه سبحانه ، ولنتأمل قوله تعالي ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ *وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ *وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ *وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية ، من آية١٧: ٢٠) ، لنجد فيها لفتا آسرا إلي النظر في هذه المخلوقات لأن فيها آيات واضحة دالة علي حكمته وعلمه ، وإذا كان الإمام ابن كثير يري أن الله تعالي قد نبه بهذه الأشياء الأربعة ذهن الإنسان البدوي الذي تتعلق رؤيته وحياته بهذه الأربعة لكي يستدل بها علي قدرة الله »[2] ، فإني أري أن القرآن الكريم لا يقتصر في دعواه هذه علي ساكن البادية من الأعراب وإن كانت هي عنده بصفة خاصة – كما يقول أحد المفسرين المعاصرين – «ملجأ وملاذ وأنيس وصاحب»[3] ، لكنها ليست قاصرة عليه «فإن مشهدها يوحي إلي النفس الإنسانية بصفة عامة جلالا واستهوالا حيث يتضاءل الإنسان إلي جوارها

---

١ – اسطوانة الألفية للشعر العربي ، الحاسب الآلي.

٢ – تفسير ابن كثير ، جـ٤ ، صـ٥٠٤.

٣ – ظلال القرآن ، جـ٦ ، صـ٣٨٩٩.

ويستكين ويخشع للجلال السامق الرزين والنفس في أحضان الجبل تتجه بطبيعتها إلي الله وتشعر أنها إليه أقرب»[1] أجل هذا حال النفس الإنسانية أينما كانت بفطرتها ونقائها سوف تلتفت إلي الله الذي خلق الجبال وذرأها علي هذا النحو العظيم الذي يملأ النفس استهوالا وتعجبا .

ولقد تنوعت صور الجبال في القرآن الكريم وبدت في صورة قشيبة تسيطر علي اللب وتهيمن علي الفكر ، وجاءت كلها غنية بالدلالات خصبة بالمشاعر . ومن ثم استوقفتني مليا وبعثت في نشاطا إلي تجليتها لنفسي وللقارئ ، ولقد اتجهت في مبحثي هذا عن (موقع الجبال في تصوير القرآن الكريم) إلي تقسيمه إلي مقدمة أبين فيها سر اختياري لذلك الموضوع، وتمهيد أتكلم عن الجبال في مرآة العلم وما كان يجب علي أمة الإسلام في مضماره ، وأربعة فصول وخاتمة فيها تلخيص لما توصلت إليه في هذا البحث الجليل ، فإذا وفقت في مرامي فإلي الله وحده يحور الفضل والعون والسداد ، وإلا فإلي وحدي يرجع التقصير ، لكن يبقي لي أجر الاجتهاد والمثوبة إن شاء الله ، وأسأله ذلك .

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾

الباحث

د/ عبد الله عبد الخالق محمد

---

١ – المصدر السابق ، والصفحة نفسها

التمهيد

الجبل هو ذلك الجرم الصخري المرتفع عن الأرض ارتفاعا ملحوظا وجمعه جبال وأجبال[١] ، ولفظ الجبل مذكور في القرآن الكريم مفردا وجمعا في نيف وثلاثين آية كما ورد بلفظ الطور في عشر آيات ، والطور اسم جبل مخصوص وقيل اسم لكل جبل وقيل هو جبل محيط بالأرض[٢] ، كما ورد الجبل بلفظ الرواسي في عشر آيات كذلك ، وورد بلفظ الأعلام مرتين ، وورد بلفظ الطود مرة واحدة وبلفظ الجودي أيضا مرة واحدة [٣].

ولقد أشار القرآن الكريم إلي كثير من الحقائق العلمية ومنها الحديث عن الجبال وفائدتها بالنسبة للأرض مما لم تعرفه البشرية شرقا وغربا إلا منذ عهد قريب كما يقول الدكتور زغلول النجار – حفظه الله – « إنه لم يبدأ في بلورة تصور صحيح عن الجبال إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، ولم يكتمل هذا التصور إلا في منتصف الستينات من القرن العشرين » ثم يعلق علي هذا بقوله « وهذا مما يقطع بأن القرآن هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »[٤]. ومن العجب العاجب أن ينسب الحديث عن الأرض وما فيها وعن كرويتها إلي علماء الغرب افتنانا بثورتهم الصناعية وما أفرزته من تقدم عجيب ، ولا يشار أي إشارة إلي جهود علمائنا في هذا الميدان أوليس ذلك غمطاً لحق علمائنا وطمسا لتاريخهم المشرق وإهدارا لتراثنا وإذا كان الله تعالي قد دحا الأرض وبسطها فإنه جلت حكمته جعل فوقها الجبال حامية لها من الاضطراب والتأرجح وهي - كما نعلم - كرة معلقة في الفضاء يمسكها الله بيد قدرته كما يقول ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاء

١ – مفردات الراغب ، صـ٨٧

٢ – المصدر السابق ، صـ٣٠٩

٣ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، صـ٣٤٠ ، صـ٤٢٩ ، صـ١٨٦ ، صـ٤٨٠

٤ – جريدة الأهرام ، عدد ٩ ديسمبر ٢٠٠٢ ، صـ١٢

أن ﴿تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (الحج،آية ٦٥) ، أجل لقد جعل الله الجبال رواسي للأرض كما قال تعالي ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان ، آية ١٠).

وليس بدعا أن نري ـ كما قلت ـ هذه اللفظة تتكرر في القرآن عشر مرات ذلك للتركيز الشديد علي هذه الفائدة الملحوظة في الجبال وإذا كان للقرآن الكريم سبق الإشارة والتنويه إلي هذه الحقائق العلمية فإنه كان من اللازم اللازب لأمة الإسلام أن تأخذ من القرآن الكريم بداية انطلاقة إلي أوج العلم والتقدم الحضاري إن أمما كثيرة سبقتنا منها من يعبد الوثن ومنها من يعبد البقر ليس معها كما معنا كتاب يدعو إلي العلم ويحض علي التفكير في الكون أفلا يحق لنا أن نبكي بعبرات من الدم مهراقة علي حال أمتنا التي تخلفت وأصبحت في ذيل الأمم ، ومعها هذا الكتاب المعجز الذي يشد كل قارئ إلي الكون تأملا وتفكيرا ، ولو أن امتنا جعلته إماما لها لكانت اليوم في طليعة الأمم تقدما وحضارة ولكان لها مكان الصدارة في دنيا العلم والمعرفة « إن الإسلام دين لا ترسخ قواعده ولا تنضج معارفه إلا في جو علمي واسع الآفاق ولا أدري كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يُدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما »[1] ، إن هذا التخلف كما يقوله الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ « إذا بقي فسوف تتلاشي عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر وينهزم التوحيد هزيمة نكراء ، وإنني أصرح دون مواربة أن هذا التخلف جريمة دينية لا تقل نكرا عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التي ألفنا الترهيب منها ، بل لعلها أشنع وأوخم عقبي »[2].

---

١ – علل وأدوية ، للشيخ محمد الغزالي ، صـ١٤١

٢ – المصدر السابق ، صـ٢٠

الفصل الأول

صورة الجبال في معرض التنويه بآلاء الله

وفي معرض التنويه بألاء الله تعالي ونعمه جاءت الجبال في القرآن الكريم في آيات كثيرة منها هذه الآية التي وردت في سورة النبأ مشبهة بالأوتاد في قوله تعالي ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ آية ٦ ، ٧) ، وتصوير الجبال بالأوتاد من قبيل تصوير المحسوس بالمحسوس، لكن المشبه به أقوي وأقرب إلي ذهن السامع في ذلك الجامع بين المشبه والمشبه به وفائدة هذا التشبيه توضيح تلك العلاقة الجامعة أجلي توضيح وبيان أن الله تعالي أرسي الأرض بالجبال كما يرسي البيت بالأوتاد ، قال الأفوه :

والبيت لا يبتني إلا له عمد ∴ ولا عماد إذا لم ترس أوتاد[1]

والصورة التشبيهية ناطقة بفائدة الجبال ليس في كونها مثبتة للأرض فحسب بل في قوة ذلك التثبيت لأنها حين تشبه الوتد يتداعي إلي الذهن انغراس الوتد في الأرض وتمكنه منها وامتداده داخل الكتلة الأرضية قدرا يسمح له بالثبات والقرار ، قال أحد المفسرين « وجعل الأرض أوتادا يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد فهي أشبه بأوتاد الخيمة التي تشد إليها أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن الكريم وندرك منها أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض وبين التقلصات السطحية وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد ، وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم ثم عرف البشر طرفا منها بعد مئات السنين[2].

---

١ - روح المعاني ، جـ٢٩ ، صـ٦

٢ - في ظلال القرآن ، جـ٦ ، صـ٣٨٠٤

ولقد جاء العلم الحديث مصدقا لذلك ، ولابد أن يصدق حيث تبين أن الجزء البارز من الجبال فوق سطح الأرض ما هو « إلا القمم البارزة لكتل هائلة من الصخور التي تطفو في نطاق الضعف الأرضي »[1].

وتبعا لأثر الجبال في استقرار الأرض صورت الجبال في القرآن الكريم بأنها الرواسي وعبر عنها بهذا الاسم في تسعة مواضع في آي الذكر الحكيم والعجيب اللافت للنظر أن القرآن الكريم لم يعبر في هذه التسعة المواضع إلا بهذين الفعلين « ألقي » و « جعل» مسندين تارة إلي ضمير العظمة القينا وجعلنا أو إلي ضمير المفرد الغائب « ألقي » و « جعل» فما السر في هذا التعبير . ولماذا مادة الإلقاء والجعل مع الرواسي دون غيرها من الأفعال ؟ ، أما مادة الجعل فإنها كما يقول الراغب لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل وضع وسائر أخواتها ويتفرق علي خمسة أوجه »[2] منها ما يتفق مع الجبال وهو معني أوجد كما في قوله تعالي ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام ، آية١) أو إيجاد شيء من شيء ، وتكوينه منه ، كما في قوله تعالي ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ (النحل ، آية ٨١) لكن المعني الأول في نظري هو الأقرب إلي الجبال في إسناد الجعل إليها وإن كانت المعاني الجامعة للفعل تتداعي حين تستخدم الكلمة وتأخذ حظا منها وإلا كان مجيء الإيجاد أولي من الجعل إذا كان يراد معناه وحده أقول هذا وأنا لم أعثر علي رأي قاطع بين أضابير المفسرين لهذا الفعل أما مادة الإلقاء فهي عند الراغب في استعمالاتها تشير إلي قوة الفعل كما في قوله تعالي ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل ، آية٥) وقوله تعالي ﴿وأَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (المزمل ، آية٣٧) لكن الدكتور زغلول النجار تهدي بفكره الثاقب لماذا عبر بالإلقاء في تلك المواطن فقال إن الجبال البركانية تتكون بعملية إلقاء بالطفوح

---

١ – الأهرام ، ٩ديسمبر ، ص١٢ ، س٢٠٠٢ـة

٢ – مفردات الراغب ، ص٩٤

البركانية ثم يقول بعد ذلك بقليل « ولما كانت هذه الألواح تطفو فوق نطاق لدن شبه منصهر يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي فإن البراكين تكثر عند الحدود الفاصلة بين تلك الألواح خاصة عند حدود التباعد بينها ومعظم هذه البراكين تلقي بحممها من أسفل إلي أعلي وتظل تلك الحمم تتراكم فوق بعضها البعض لتكون كتلا جبلية معزولة من الصخور البركانية »[1]، وعليه فإن الحكمة في التعبير بالجعل أحيانا وبالإلقاء أحيانا أخري تتجلي سافرة من خلال ذلك التحليل والقرآن الكريم يريد ـ والله أعلم ـ أن يلفت المسلم إلي ما في مادة الجعل والإلقاء من قدرة الله تعالي وحكمته وعلمه المحيط لأنه سبحانه حين يلقي الشيء لا يلقيه عبثا والمتأمل في التعبير بالرواسي يري أنه أدق فهو وإن ذاع واشتهر عن الجبال فهو تعبير بالصفة عن الموصوف لكنه في نظري يميل إلي الكناية عن الجبال مبرزا أهم خصائصها بالنسبة إلي الأرض وهو إرساؤها حتى لا تضطرب بمن فوقها ومن ثم يكون وقع الرواسي أدعي إلي استحياء فوائد الجبال وأقرب إلي ظلال الألفاظ وأبعادها ولو جاءت الجبال مع الإلقاء والجعل لكان فيها من الفظاظة والغلظة ما ينبو عن الذوق الإنساني بله البلاغي ناهيك عن فقدان لفظ الجبال للفائدة التي ألمعت إليها كلمة الرواسي من أول الأمر .

كذلك وردت في معرض التنويه بآلاء الله ونعمه علي عباده ، هذه الآيات حتى يتجرد المؤمن للعبادة الخالصة لله وحده ، يقول تعالي ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (الشورى ، آية ٣٢) ، ويقول في سورة الرحمن ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (الرحمن ، آية ٢٤) والآيتان تتفقان في تشبيه السفن الجارية بالأعلام وهي الجبال، وقد سميت الجبال بهذا الاسم « لأنها الأثر الذي يعلم به الشيء »[2] و « هذا التشبيه مرسل حيث شبه الكبير وهي السفن بما هو أكبر منه »[3] وهي الجبال بجامع

١ – الأهرام ، ٩ ديسمبر ، صـ١٢ ن سـ٢٠٠٢ـة

٢ – مفردات الراغب ، صـ٣٤٤

٣ – المثل السائر، جـ١ ، صـ٣٨٠, ٣٨١ / الطراز ، صـ١٤٦

العظم والضخامة والارتفاع ، ومن فوائد هذا التشبيه ـ كما يقول العلامة الرماني عنه ـ أنه « قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلي ما له قوة فيها ، وقد اجتمعا في العظم إلا أن الجبال أعظم»[1].

وإذا كانت الجبال هي الأعلام فلم آثر هذا اللفظ في هاتين الآيتين دون غيرهما في القرآن الكريم كله ؟ إنه قد يعن للخاطر أول وهلة أن العلة في ذلك ترجع إلي الماثلة بين الميم والنون كما هو الأمر في سورة الشورى ، وليس للفاصلة أثر البتة ، والجواب الصائب هو ما قاله أستاذنا الدكتور أحمد بدوي بصدد ذلك الإيثار : « ولكنك تراه قد آثر كلمة الجبال عن الموج لما أنها توحي بالضخامة والجلال معا ، أما عند وصف السفينة فقد آثر كلمة الأعلام ، جمع علم بمعني جبل ، وسر إيثارها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعي هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة ، ولما كان من معاني العلم الراية التي تستخدم للزينة والتجميل كان ذكر الأعلام محضرا إلي النفس هذا المعني إلي جانب إحضارها صورة الجبال، وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظا عند ذكر السفن الجارية فوق البحر تزين سطحه ، فكأنما أريد الإشارة إلي جلالها وجمالها معا ، وفي كلمة الأعلام وفاء بتأدية هذا المعني أتق وفاء »[2] . وهذا كلام ثمين أصاب المحز مع ما في كلمة الأعلام من خفة في الوزن تتسق ولفظ السفن ولو عبر بالجبال مكانها لكان أمرا فجا ينفر منه الذوق المستقيم ومن أجل ذلك وصفت الخنساء أخاها صخرا بقولها :

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بهِ ∴ كأنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نَارُ

والتصوير بالأعلام مع تأديته للغرض المنوط وهو تصوير ضخامة السفن وارتفاعها وجمالها وجلالها فقد كشف لنا عن قدرة الله تعالي في تسخير الأجسام العظام في ألطف ما يكون في الماء وما في ذلك من انتفاع الخلق بحمل الأثقال وقطعها الأقطار البعيدة في المسافة

---

١ – ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ، صـ٨٥

٢ – من بلاغة القرآن الكريم ، صـ٢٠١

القريبة ، وما يلازم ذلك « من تسخير الرياح للإنسان ، فتضمن الكلام بناء عظيما من الفخر وتعداد النعم»[1] وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك فإن الواجب علي الإنسان إزاء تلك النعم أن يحمد الله تعالي ويشكره باللسان والقلب والجوارح ، حتى يديم الله علينا تلك النعم.

---

١ - الإتقان في علوم القرآن ، جـ٢ ، صـ٣٥٨

الفصل الثاني

مقام تصوير القدرة الإلهية وما فيها من خشوع

في مقام بيان قدرة الله سبحانه وتعالي في خلق الجبال وتكوينها وما يترتب علي ذلك من خشية تسري في قلب العبد المسلم أمام ذلك ذكر الله تعالي حادثة رفع الطور علي بني إسرائيل لما تقاعسوا عن العمل بما ألزمهم الله به من أحكام التوراة ، فلما رأوا رأي العين أن الله تعالي نتق الجبل عليهم التزموا بتلك الأحكام خوفاً ، وقد ذكرت هذه الحادثة في سورة الأعراف بلفظ « النتق » مع الجبل وذكرت ثلاث مرات أخر بلفظ « الرفع » مع الطور ، في سورة البقرة مرتين في قوله تعالي ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة،آية ٦٣) ، وفي قوله تعالي ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ﴾ (البقرة ،آية ٩٣)، وفي سورة النساء في قوله تعالي ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ﴾ (النساء،آية ١٥٤)، فالآيات الأربعة تدور حول حادث واحد والمعني وإن كان واحداً فإن الألفاظ في هذه الآيات الثلاث الأخر تتقارب ، وهي من التكرار البلاغي المحمود ، لأنه منصوب لهدف جليل ألا وهو الوعيد والتهديد، وهو بلا ريب قمين بذلك التكرار للحدث ، وقد وضع أحد الباحثين الفضلاء مصطلحاً للتكرار تخرج هذه الآيات الثلاثة منه حيث قال عنه بأنه « إعادة العبارة بنصها في سياق واحد لغرض يستدعي إعادتها وفي مقام يقتضي هذه الإعادة »[1] وبين أن ما ذكر في كتب البلاغة والنقد والتفسير من العبارات المختلفة بأنها ليست من التكرار ووضع لها مصطلح المتشابهات[2] ، وسواء كنا مع هذا التحديد أو ضده ، فإن المضمون الواحد

---

١ – التكرار بلاغة ، صـ٢١

٢ – المصدر نفسه ، صـ٢١

للآيات يطرح علينا سؤالاً فحواه ،لمَ عبر بالنتق مع الجبل في سورة الأعراف ، وعبر بالرفع مع الطور في البقرة والنساء ؟

إننا نجد لأحد الباحثين الفحول جوابا أراه شافيا في تعليل ذلك الأمر ، وخلاصته أنه لما كان الوعيد في سورة الأعراف أشد ، جاء استعمال الجبل لأن الجبل أعظم من الطور ، حيث إن اسم الجبل يطلق علي ما طال وعظم من أوتاد الأرض ، وليس الطور كذلك ، ومن ثم جاء الجبل في مقام الشدة والهول وبيان قدرة الله الجبارة ، وهكذا دائما يأتي ذكر الجبل لما في النتق وهو الجذب والاقتلاع من التخويف والتهديد ، فالنتق أشد من الرفع في حين أن الرفع ضد الوضع ، ولما كان القرآن قد أفاض في سورة الأعراف عن صفات بني إسرائيل الذميمة ناسب ذلك التعبير بالنتق مع الجبل لما يقتضيه المقام والأمر علي العكس في سورتي البقرة والنساء[1] ، والرفع في القرآن الكريم قد ورد في ثلاثين موضعاً يتردد التعبير بها بين الحقيقة والمجاز لكنها في هذه الآيات الثلاثة كان التعبير بها حقيقة لا مجازاً كما يبوح به السياق[2] ، والملاحظ في الثلاث الآيات هذه أن القرآن الكريم اكتفي بالتعبير برفع الجبل فوقهم ، ولم يورد له تشبيهاً كما في سورة الأعراف ، وسبب ذلك واضح لأن التعبير برفع الجبل صورة واضحة لا احتمال فيها لتجوز ومثل ذلك التعبير الواضح تكون صورته ماثلة أمام العين الباصرة ، والعقل يدرك من خلال هذه الصورة المرئية المراد منها بلا أي احتمال آخر ـ ما دام التعبير حقيقياً ـ ، أما في نتق الجبل في سورة الأعراف فهناك احتمال ألا يكون الجبل قد رفع فوق رؤوسهم ، ومن ثم أعقبه بقوله تعالي ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ حتى تؤدي المراد منها ، وحتى يتقرر أنه رفع فوقهم ، وأصبح شبيهاً بالظلة.

وفي مضمار الحديث عن عظمة القرآن العظيم وفي إطار توبيخ الإنسان بأنه لا يخشع عند تلاوته القرآن بل يعرض عما فيه من عجائب وعظائم يقول الله تعالي ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا

---

١ – بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، بتصرف ، صـ١٢٧، ١٢٨

٢ – ينظر ، دراسات جديدة في إعجاز القران ، د/ عبد العظيم المطعني ، صـ٢٤٩

الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر،آية ٢١) ، وهذه الآية الكريمة تشبه إلي حد كبير آية الرعد السالفة وهي قول الله تعالي ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال...﴾ ووجه المشابهة بينهما ماثل في ذلك التأثير القوي العجيب للقرآن الكريم ، لو أنزله الله علي الجبال لتصدعت ولو سلط عليها لسارت ، ذلك التأثير هو الجامع بين كلتا الآيتين ، يقول الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسير آية الحشر «لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ولرأيتها علي صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة أي متشققة من خشية الله»[1] والغرض من الآية توبيخ الإنسان علي قسوة قلبه وعدم تأثره بهذا الذي لو أنزل علي الجبل لتخشع وتصدع ، وإذا كان الجبل علي عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع فابن آدم كان أولي بذلك لكنه علي حقارته وضعفه لا يتأثر[2].

والتعبير بحرف الشرط « لو » في محله جاء دالاً علي امتناع الجواب لامتناع الشرط ، أما الفعل أنزل فلا يفيد تكراراً ولا تدرجاً ولا تكثيراً بخلاف نزّل بالتضعيف ، يقول الإمام الغرناطي صاحب ملاك التأويل موازناً بين هذين الفعلين «أما لفظ «أنزل» فلا يعطي ذلك إعطاء «نزّل» وإن كان محتملاً وكذلك جري أحوال هذه الكتب فإن التوراة إنما أوتيها موسي عليه السلام جملة واحدة في وقت واحد ، أما الكتاب العزيز فنزل مقسطاً من لدن ابتداء الوحي ، وقال تعالي ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل علي رسوله﴾ - « وهو القرآن » - ، ثم قال ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ - « والمراد التوراة» - (النساء ، آية١٣٦).

وعلي هذا الرأي ، فإن لنا أن نسأل لماذا عبر في هذه الآية التي نحن بصددها ، وهي آية الحشر بالفعل « أنزل » الدال علي النزول جملة واحدة بدلاً من الفعل « نزّل »

---

١ - تفسير القرطبي ، جـ ٧١ ، صـ٦٥٢٢

٢ - تفسير البحر المحيط ، جـ ٨ ، صـ٢٥١

المناسب لنزول القرآن مقسطاً كما يقول صاحب ملاك التأويل ؟ . والجواب أن المنزل عليه علي سبيل الافتراض هو الجبل وهذا الإنزال المفترض قد يكون مفرقا لكن الاحتمال الأكبر أن يكون جملة بالنسبة للمنزل عليه حقيقة وهو الرسول ﷺ ، ناسب اختلاف الفعل بين هذا وذاك ، وقد عبر باسم الفاعل مرتين « خاشعاً متصدعاً » وجاء الترتيب بينهما ترقيا من الأدني وهو الخشوع إلي الأقوى والأعلى وهو التصدع والتعبير باسم الفاعل للدلالة علي ثبوت الصفة ودوامها ووجود حرف الشرط يقوي ذلك التلازم بين الجواب وهو « لرأيته خاشعاً متصدعاً » وبين فعل الشرط وهو « الإنزال » وجوداً وعدماً فبرغم أن الجواب معدوم الوجود لأن الشرط معدوم الوجود إلا أن فحوي الكلام يفيد أنه لو ثبت الشرط ووجد لوجد الجواب تبعاً له وصورة الجبال هنا تنبئ عن عظمة القرآن الكريم وتبين لنا بكل جهارة أن لهذا الكتاب العزيز الأثر الفعال في أعتى الأشياء وأشدها جرما وعوداً ، ومن ثم فإنها توبيخ شنيع للإنسان الغافل السادر في غيه عن ذلك الكتاب المعجز الذي لا يليق بذلك الكائن العاقل أن يغفل عنه ويلهو بعيداً عن أوامره ونواهيه وأحكامه وقوانينه ، إذن الآية ضربت علي سبيل التمثيل والتخييل كما يقول صاحب الكشاف ليصل منها إلي « توبيخ الإنسان علي قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره »[(1)] والدليل علي ذلك التعقيب عليها بقوله تعالي ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

كذلك وردت في إطار الدلالة علي الخشوع والخشية التي تتراءي لنا من خلال تسبيح الجبال وتأويبها ومن الصور الرائعة للجبال في كتاب الله تعالي صورة تسبيحها مع نبي الله داود عليه السلام وقد ورد ذلك في ثلاث سور من سور القرآن العظيم ، اثنتان منها ورد فيهما التسبيح والثالثة ورد فيها مادة التأويب ، ففي سورة الأنبياء جاء قوله تعالي ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء،آية ٧٩) ، وفي

---

١ - الكشاف ، جـ ٤ ، صـ ٨٤

سورة « ص » جاء قوله تعالي ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (ص،آية١٨) ، وهاتان الآيتان هما اللتان ورد فيهما لفظ «يسبحن» وأما التي ورد فيها لفظ «أوبي» فهي سورة سبأ حيث يقول الله تعالي ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ،آية١٠)، والآيات الثلاث تتحدث عن موضوع واحد وهو ما امتن به الله علي نبيه داود وما آتاه الله من آيات خارقة للعادة من تسبيح الجبال والطير معه وإلانة الحديد بين يديه كالعجين يشكله كيف يشاء بقدرة الله تعالي ، والآيات وإن كان موضوعها واحداً إلا أن اللفظ مختلف أي اختلاف وهذا الاختلاف تقديماً وتأخيراً وحذفاً وإثباتاً نوع من بلاغة القرآن يتفرد به ضمن ما يتفرد به من معجزاته البلاغية التي تبز كل بلاغة فلا سبيل أمام بلاغة البشر أن يعبروا عن موضوع واحد بعدة تعبيرات إلا وكان واحد منها له السبق بلاغة وفصاحة علي غيره أما القرآن الكريم فليس كذلك بل كل تعبير له يستوي مع الآخر في بلاغته وفصاحته وإن كان الموضوع واحداً .

ولنعرض لما قاله المفسرون في هذه الآيات الثلاثة ، ليستبين لنا وجه البلاغة فيها، ففي سورة الأنبياء ﴿وسخرنا مع داود الجبال...﴾ نري المفسرين يقولون إن الفعل « يسبحن» بمعني يقدسن إما بلسان المقال كما سبح الحصا في كف النبي ﷺ وقيل بصوت يظهر له من جانبها وتعقب هذا الرأي بأنه خلاف الظاهر مع أن هذا لم يذكره أهل اللغة ، وقيل إسناد التسبيح إلي الجبال مجاز لأنها كانت تسير مع داود عليه السلام فتحمل من رآها علي التسبيح فأسند التسبيح إليها وتأول الجبائي وعلي بن عيسي جعل التسبيح بمعني السير بأنه مجاز لأن السير سبب له[1] ، لكن معظم المفسرين يرجحون كون التسبيح بلسان المقال لا الحال من حيث إن التقييد بالوقتين المذكورين في سورة « ص » يأباه ، إذ لا

---

١ - روح المعاني ، جـ١٧ ، صـ٧٦

اختصاص لتسبيحهن الحالي بهما وكذا لا اختصاص له بكونه معه[1] ، وقالوا عن الظرف « مع » إنه متعلق بالفعل سخرنا أو بالفعل يسبحن [2] ، وقدمت الجبال علي الطير كما يقول الزمخشري لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل علي القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان ناطق[3]

وجملة « يسبحن » جملة حالية وهو الظاهر أو استئنافية وقد جاء الحال جملة بدلا من المفردة مسبحات للدلالة علي تجدد التسبيح واستمراره ونلاحظ أن القرآن جاء باللفظ « مع» في قصة داود عليه السلام وبحرف الجر « اللام » في قصة سليمان حيث قال في الأولي ﴿وسخرنا مع داود الجبال﴾ وفي الثانية ﴿ولسليمان الريح﴾ وتكرر ذلك في سورة « سبأ » و « ص » وقد علل ذلك صاحب البحر المحيط تعليلا أصاب به كبد الحقيقة حين قال إن «داود عليه السلام لما اشترك مع الجبال والطير في التسبيح ناسب ذلك أن يأتي بالظرف « مع» للدلالة علي الاستصحاب ولما كانت الريح مسخرة لسليمان أضيفت إليه بلام التمليك لأنها في طاعته وتحت أمره »[4] ، أما صاحب روح المعاني فقد علل لذلك تعليلاً لا يصل إلي التعليل الأول في قناعته وقوته حيث يقول « إن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلي فيها إليه كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق الاقتداء به في عبادة الله تعالي »[5] وأنا أري ـ كما أسلفت ـ أن التعليل الأول أدني

١ – المصدر السابق ، جـ٦ ، صـ١٧٤ / حاشية الشهاب ، جـ٦ ، صـ٤٦٢-٤٦٣ / البحر المحيط ، جـ٦ ، صـ٣٢٧.

٢ – حاشية الشهاب ، جـ٦ ، صـ٤٦٣

٣ – البحر المحيط ، جـ٦ ، صـ٣٢٧

٤ – البحر المحيط ، جـ٦ ، صـ٣٢٧

٥ – روح المعاني ، جـ٢٣ ، صـ١٧٤

إلي العقل ولا مانع أبداً أن ينضم هذا إلي سالفه ليكون تعليلاً واحداً لـذلك الأمـر فكـل عـالم ووجهته وكمال الأمر في الجمع بين هذه المذاهب مادام ليس ثمة مانع من ذلك الجمع .

وتقديم الظرف في سورة « الأنبياء » وتأخيره في سـورة « ص » أمـر لم يفـت هـؤلاء الأفذاذ فقد قال في شأنه الإمام الألوسي إن ذلك راجع إلي أنه لما ذكر داود وسليمان في سـورة « الأنبياء » قدم الظرف هناك مسارعة للتعيين هـذا بخـلاف سـورة « ص » حيـث إن الأمـر مختلف[1] وهذا أوجه من قول الشهاب الخفاجي - رحمه الله - وترجيحه أن يكون الظـرف « مع » في سورة الأنبياء مقدم من تأخير[2] .

وأما الآية الثالثة فهي الوحيدة التي جاءت بصيغة الأمـر في الفعـل « أوبـي » والتأويـب لـه معان كثيرة منها التوبة والرجوع عن المعصية ومنها الإسراع في السير كما في قول كعـب بـن زهير :-

كأن أوب ذراعيها إذا عرفت ∴ وقد تلفع بالقور العساقيل

وقد تطلق علي المجيء ليلاً كما في قول امرئ القيس :-

تأوبني الدار القديم مغلساً ∴ أحاذر أن يرتد دائي فأنكسا[3]

وقد خطأ الإمـام ابـن كـثير - رحمـه الله - أن يكـون المـراد بالتأويـب في هـذه الآيـة الكريمة السير بالنهار كما فسرها أبـو إسـحاق الزجـاجي في كتابـه الجمـل ، وصـوب أنهـا بمعني رجعي معه مسبحة[4] وهذا الصواب عينه وهذا التفسـير وغـيره يـثير أمامنـا سـؤالاً فحواه لماذا عبر بالتأويب هنا دون سائر الآيـات ؟ والجـواب يمكـن أن نستخلصـه مـن المقام ومادة الكلمة ذاتها ، ذلك أن الخطاب في الآية موجه إلي الجبال في صـورة نـداء أعقبـه أمـر

---

١ - روح المعاني ، جـ٢٣ ، صـ١٧٤ بتصرف

٢ - حاشية الشهاب ، جـ٦ ، صـ٧٩ بتصرف

٣ - أساس البلاغة ، جـ٦ ، صـ٢٤ / مفردات الراغب ، صـ٣٠

٤ - تفسير ابن كثير ، جـ٣ ، صـ٥٢٧

بترجيع التسبيح واستمراره مع نبي الله داود ، ولما كانت مادة الكلمة مفيدة ذلك الترجيع والترديد ناسب ذلك في هذا الموطن فضلاً عن أن نداء الجبال مشعر بالضخامة والفخامة ومجيء سبحي في ذلك المقام لا يتناسب وقوة اللفظ ومن ثم جاء اللفظ المناسب وهو « أوبي » في قوته وفخامته حتى يكون فيه إشباع للمعني ومواءمة لفظية لنداء الجبال في جرسها القوي .

إننا من خلال الآيات الثلاثة نري صورة فريدة من نوعها صورة الجبال ترجع التسبيح لله رب العالمين مع نبي الله داود «إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع»[1] ولا غرو فالقدرة الإلهية فوق المحال ويفعل الله ما يشاء كما أن هذه الصورة ترينا أن كل شيء يسبح بحمد الله تعالي ويلهج بشكره مصداقاً لقوله تعالي ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء،آية٤٤) ولو علمنا الله تعالي كما علم داود لسمعنا كما سمع كيف تؤوب الجبال وتسبح الطير غادية رائحة.

كذلك ورد في معرض الحديث عن قدرة الله تعالي وما تصنعه من عجائب وخوارق هذه الآية التي يتحدث القرآن الكريم فيها عن نبي الله تعالي نوح وإلحافه علي إنجاء ابنه بأن يركب السفينة معه حتى لا يكون مع الهالكين لكن الولد الكافر يعرض عن نصح أبيه ويأوي إلي جبل زعماً أن هذا الطوفان كسائر السيول « وجهلاً منه بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة فلا بد أن يدركهم ولو كانوا في قنن الجبال »[2] وتراكيب الآية والنظم فيها في غاية الإبداع والإتقان فالتسويف في الفعل « سآوي » دال علي عدم احتفال ذلك الولد الكافر بالنصح وعدم مبالاته بالأمر وذلك ديدن الكفرة ، وتنكير « جبل » يدل علي الشيء نفسه

---

١ – ظلال القرآن ، جـ٥ ، صـ٢٨٩٧

٢ – روح المعاني ، جـ١١ ، صـ٥٩

مع أن المفسرين قد عينوا الجبل المراد وقالوا إنه طور زيتا[1] لكن التنكير هنا ينحو منحى عدم الاهتمام بالأمر وكأنه يقول إن الأمر ليس خطبا يؤبه له بل هو هين فالنجاة منه ميسورة إذ يلجأ الإنسان إلي أي جبل من تلكم الجبال ليحميه وإسناد العصمة إلي الجبل في قوله تعالي ﴿يعصمني من الماء﴾ تعبير عن وجدانه وعقله الكافر الذي يجد العصمة في الطبيعة أما العقل المسلم فلا يجد العصمة إلا في الله ومن الله ومن ثم جاء رد نبي الله نوح حاداً قاطعاً ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ وللعلماء أقوال كثيرة في تحرير هذه الآية بلاغياً وها هو صاحب الانتصاف علي الكشاف يجمل لنا تلك الآراء فيقول « والاحتمالات الممكنة أربعة لا عاصم إلا راحم ولا معصوم إلا مرحوم ولا عاصم إلا مرحوم ولا معصوم إلا راحم ، فالأولان استثناء من الجنس والآخران من غير الجنس وزاد الزمخشري خامساً وهو لا عاصم إلا مرحوم علي أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف تقديره لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم والمراد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل وبالثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز وبعضها أقرب من بعض والله أعلم»[2].لكن الشهاب الخفاجي وهو أكثر العلماء تحليلاً لهذه الوجوه زاد عليها سادساً وسابعاً وهو حين يمر بوجه من هذه الوجوه يكشف لنا عما فيه من نكات بلاغية ، ففي الأول عنده : لا عاصم إلا الراحم يري أن فيه « إقامة الظاهر مقام المضمر لأن الأصل لا عاصم من أمر الله إلا الله وفي العدول إلي الموصول زيادة تفخيم وتحقيق لرحمته وأن رحمته هي المعتصم لا الجبل»[3] ثم استطرد يعدد الآراء في هذه الآية ويبين محاسنها البلاغية فيقول : الخامس إضمار المكان أي لا عاصم إلا مكان من رحمة الله وهو السفينة ويرجح هذا الوجه لأنه علي رأيه مقابل لقوله: يعصمني ويقول إن العاصم علي هذا الرأي حقيقة لكن إسناده إلي المكان مجازي أي

---

١ – البحر المحيط ، جـ ٥ ، صـ ٢٢٤

٢ – الانتصاف علي الكشاف ، جـ ٢ ، صـ ٢١٧-٢١٨

٣ – حاشية الشهاب ، جـ ٥ ، صـ ١٦٩ بتصرف

مجاز عقلي ثم يقول عنه أيضاً بصيغة التمريض « وقيل إنه مجاز مرسل عن مكان الاعتصام» ويقول عن هذا الرأي إنه أرجح من الكل ثم يبين الوجه السادس في نظره « وهو لا معصوم إلا مكان من رحمة الله وأريد به عصمة من فيه علي الكناية فإن السفينة إذا عصمت عصم من فيها والسابع عنده أن الاستثناء مفرغ »[1] وهكذا يمضي في تحليله الكاشف الواعي .

وصورة الجبل غنية بالدلالات حيث كان محور القضية التي دارت حوله ، فالجبل هنا رمز إلي القوة المادية التي يلوذ بها الكفار والتي يرون فيها حماية لهم وعاصماً ، وقد أبان لنا القرآن الكريم أن القوة المادية ماثلة في الجبل ليست عاصماً من قدر الله إذا نزل ومن ثم تحضنا الآية علي اللجأ إلي خالق المادة لا إلي المادة ولاسيما إذا عم الخطب وادلهم الأمر ونزلت الغواشي ساعتها لا نجاة أبداً في الاحتماء بالمادة مهما كانت ولكن الوقاية تكون في كنف الله وجانبه وهذا ما يعطينا إياه التصوير بالجبال في هذه الآية الكريمة .

كذلك جاءت الآية التالية في معرض الحديث عن قدرة الله تعالي وما ينتج منها من خشوع القلب وخشيته يقول الله تعالي ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء،آية ٦٣) وهذه الآية هي الوحيدة في القرآن التي جاء فيها لفظ الطود وهو الجبل ، والآية فيها محذوف كما يقول العلماء تقديره « فضرب فانفلق فضرب موسي بعصاه فصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق ، وأراد تعالي أن يجعل هذه الآية متصلة بموسي عليه السلام ومتعلقة بفعل فعله ولكنه بقدرة الله تعالي ، إذ ضرب البحر بالعصا لا يوجب انفلاق البحر بذاته ولو شاء الله تعالي لفلقه دون ضرب بالعصا تقدم الخلاف في مكان هذا البحر ، والفِرق : الجزء المنفصل ، والطود : الجبل العظيم المنطاد في السماء »[2] .

---

١ – المصدر السابق والصفحة نفسها بتصرف

٢ – البحر المحيط ، جـ٧ ، صـ١٧

وللقاضي شهاب الدين الخفاجي في حاشيته تحليل وتقصي للشعاب الإثنى عشرة لا داعي لذكرها ، لكنه يتفق مع العلامة البيضاوي في أن الطود هو الجبل المنيف الثابت في مستقره[1] ، والتشبيه في الآية مرسل مجمل لأن فيه ذكر الأداة وحذف وجه الشبه ، وقد استطاع التشبيه أن يبرز لنا قدرة الله تعالي في إحالة البحر في لحظة خاطفة إلي هذا الشكل الذي يبدو فيه كل فرق من الماء كأنه جبل ساكن ثابت ، تلك صورة ناطقة بتلك القدرة المقتدرة لله سبحانه ، مبرزة أن ما يريده الله لابد أن يتم وإن كان غير معهود ولا معقول ، فالسوائل تصير جامدة ، والجامد سائلا فلا حائل ولا معقب أمام قدرة الله تعالي وأمام تلك الصورة يتصاغر جبروت كل جبار ويعلم أن قدرته مهما كانت سطوتها فهي أمام قدرة الله تعالي لا تساوي شروي نقير .

كما جاءت الجبال أيضا في بيان تلك القدرة وما لها من طلاقة في سورة الأعراف في طيات صورة جميلة تعرب عن جلال الله تعالي وتعاليه ففي قوله تعالي ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف،آية ١٤٣) نجد للجبل مكانا بارزا في معالم تلك الصورة الرائعة الجليلة المترعة بالهيبة والجلال لذي السلطان الأكبر سبحانه ، ألم تر أن موسي عليه السلام حين واعده ربه سبحانه ليتلقي منه كلماته أضحت «روحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلي ما يشوق فينسي من هو وينسي ما هو ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض ، يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهف الحب ورغبة الشهود ، لكن الله تعالي يقول ﴿لن تراني﴾ مترفقا به لأنه لا يطيق ، ويحيله إلي الجبل قائلاً له ﴿فإن

---

١ – حاشية الشهاب ، جـ٧ ، صـ١٨٦

استقر مكانه فسوف تراني﴾ والجبل أمكن وأثبت ﴿فلما تجلي ربه للجبل جعله دكا﴾ فكيف كان هذا التجلي ؟ نحن لا نملك أن نصفه ولا نملك أن ندركه ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله »[1].

إننا أمام لوحة كونية تستغرق الوجدان وتلف المشاعر وتبعث فيها شارات الإجلال والجلال ، لوحة نري فيها موسي عليه السلام واقفا وكله خشوع ورهبة ينتظر من الله أن يمن عليه بما تشوف إليه من كلام ربه له ، وفي غمرة النشوة المهيمنة علي حواسه يطلب ما ليس له لكن المحب المشتاق يجنح إلي ما لا يطاق ، لقد طلب من ربه تعالي أن يراه ليشبع ذلك الوجدان الصادي إلي معية المولي لكن الله تعالي يبين له أنه لا يطيق رؤيته، ثم أحال الأمر إلي الجبل لأنه أشد قوة وأصلب عوداً وأقوي تحملاً « فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتي أمكن أن تراني أنت وإن لم يطق الجبل فأحرى ألا تطيق أنت فعلي هذا جعل الله الجبل مثالاً لموسي ولم يجعل الرؤية مستحيلة علي الإطلاق »[2] .

إن القارئ يستحضر وهو يقرأ هذه الآيات صورة موسي كليم الله وهو واقف يتلقي من ربه كلماته ثم يرنو ويشخص ناظراً إلي ذلك الجبل الضخم المرتفع بهامته إلي أعلي وفي لحظة لا تكاد تذكر يري الجبل هشيماً كأن لم يغن بالأمس ، إن قول الله تعالي ﴿فلما تجلي ربه للجبل جعله دكا وخر موسي صعقا﴾ يرينا المشهد العجيب في ثوان معدودات لا تجد للجبل أثراً وقد زالت كتلته واندكت قوته وصار أثراً بعد عين ، تري ما سر ذلك ؟ . إنها جزء من قوة الله تعالي لم يطقها ذلك الجبل الأشم وإنما خارت قواه وانهدت عزمته أمام لمحة خاطفة من رؤية المولي ومن ثم أعقب هذا الحدث قوله ﴿وخر موسي صعقا﴾ فالمشاعر البشرية لا تقوي أمام هذا المشهد والإحساس البشري لابد أن يناله

---

١ – في ظلال القرآن ، جـ٣ ، صـ١٣٦٨، ١٣٦٩ بتصرف

٢ – صفوة التفاسير ، جـ٤ ، صـ٤٥٩

ما يناله ، من هيبة أمام هذه الصورة الآخذة المهيبة ، التي لا يستقر أمامها إحساس ولا وجدان ، « وصعق موسي » كلمة جامعة لحالة الذهول التي هيمنت عليه وهو مقابلة لدك الجبل فهذا دك لأنه كتلة صخرية وذلك صعق لأنه كتلة بشرية من لحم ودم لكن الأخير ناتج عن الأول ومسبب عنه ، لقد جاء الجبل جزءاً أصيلا في التصوير ومحوراً دارت حوله الأحداث وكان هو بؤرة الحدث الذي دارت حوله هذه الآية الكريمة وهو بلا شك من أكبر الأحداث التربوية التي تشذب أمنية المسلم وتكبح من جماحها وتلطف من اشتياقها ورأينا الجبل موطن ذلك الدرس ومحط تلك العظة لتربي العقل البشري بما فيه من عاطفة نزاعة إلي رؤية مالا يري ، إن المشهد الذي تحدثت عنه الآية لوحة بيانية رائعة مكونة من عناصر محسوسة يعلو عليها المشهد الغيبي الإيماني الذي يتجلي من تكليم الله تعالي لعبده موسي تكليماً ولنا أن نقف أمام قوله تعالي ﴿ولكن انظر إلي الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلي ربه للجبل جعله دكا وخر موسي صعقا﴾ فللعلماء كلام طويل في الرؤية لكن أصحها وأصدقها قول أهل السنة، إن الرؤية جائزة عقلاً وقررت الشريعة رؤية الله تعالي في الآخرة ومنعت ذلك في الدنيا[1] ، وهذا هو الصحيح ، وقد عللوا منعها في الدنيا بهذه الآية حيث إن « تعليق الرؤية علي استقرار الجبل مؤذن بعدمها إذ لم يستقر ونبه بذلك علي أن الجبل مع شدته وصلابته إذا لم يستقر فالآدمي مع ضعف أولي بألا يستقر »[2] وهذا استنتاج منطقي صائب ومع ذلك فالتعبير يتجه إلي الكناية منه إلي التصريح حيث إن الكناية تسلم في النهاية إلي ما وصل إليه ذلك الدليل وأما قوله تعالي ﴿فلما تجلي ربه إلي الجبل جعله دكا﴾ أي جعله مدكوكا فالمصدر هنا حال محل المفعول به وهو أبلغ فإنه يدل علي أن الجبل من كمال دكه كأنه وصل إلي ذروة المصدر نفسه وأصبح عينه ومن ثم كان التعبير بالمصدر مفيدا ذلك المعني ألا وهو بلوغ تصدع الجبل منتهاه ، ولو

---

١ – البحر المحيط ، جـ٤ ، صـ٣٨٢

٢ – المصدر السابق ، صـ٣٨٣

عبر باسم المفعول لما أعطي هذا المعني ومثل ذلك التعبير بالمصدر جاء قول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت ∴ فإنمـــــا هـــــي إقبـال وإدبار

وقد علق الشيخ عبد القاهر علي هذا التعبير بقوله « ولم ترد بالإقبال والإدبار غير معناها فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذلك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرها كأنها تجسمت من الإقبال والإدبار»[1].

وعلي هذا ففي قوله تعالي ﴿فجعله دكا﴾ مجاز حكمي من أروع المجازات وأغناها بالدلالات حيث أبان لنا - كما سلف القول - أن دك الجبل كان دكا تاما أنهي علي كينونة الجبل وجعله أثراً بعد عين وهذا لا يحققه اسم المفعول « مدكوك » لكن المصدر هو الوحيد الذي يؤدي المراد من أن الجبل صار تراباً ولم يبق من معالمه شيء البتة .

كذلك وردت هذه الآية في معرض الخشوع والخشية التي يستشعرها الوجدان السليم عندما يطالع تلك القدرة الإلهية التي تحرك الأشياء فقد جاءت في شأن نوح عليه السلام حين أمره الله تعالي أن يصنع السفينة وأوحي إليه أن يركب فيها وكل من آمن بالله جلت قدرته ، والآية التي معنا تصور ذلك الحدث لنري فيه الهول مجسداً في تلك الأمواج المتراكمة بسبب ذلك الطوفان العرم الذي سلطه الله تعالي علي الأرض ومن خلال الهلاك المتيقن نري إنجاء الله للفئة المؤمنة مع نوح عليه السلام ، يقول الله تعالي عن ذلك ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود ، آي٤٢) ، لقد سارت السفينة علي وجه الماء الذي طبق جميع الأرض كما يقول العلامة ابن كثير رحمه الله « حتى طفت علي رؤوس الجبال

١ - دلائل الإعجاز ، صـ٣٠٠

وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا ، وقيل بثمانين ميلا »[1] حتى أصبح الهول هولين « هول في الطبيعة الصامتة ، وهول في النفس البشرية يلتقيان وإننا بعد آلاف السنين لنمسك أنفسنا ونحن نتابع السياق والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد »[2] . لقد استطاع التشبيه أن يصور هذا الهول تصويرا حيا مشاهدا وأن يفرغ في النفس البشرية ذلك الفزع فلا يريم عنها والتشبيه في الآية الكريمة تشبيه كل موجة من تلك الأمواج بالجبل في الضخامة والتراكم وليس تشبيه الموجة الواحدة بالجبال[3] وهذا مفاد من مقابلة الجمع بالجمع ، وإذا تأملنا في هذا التشبيه ، وجدناه تشبيه محسوس بمحسوس يقصد منه رسم الصورة المرئية كما تحس بها النفس البشرية « ألا تري الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة وتصور في الوقت نفسه ما كان يحس به ركاب السفينة وهم يشاهدون هذه الأمواج من رهبة وجلال معا كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال »[4] . كما نجد في هذا التشبيه توضيحا لقدرة الله تعالي في كلاءة نوح عليه السلام ومن آمن معه ، حيث وقاهم وسط هذا الخضم الموار وما فيه من هلاك محقق ، وبأي شيء ؟ بفلك صغير حملته يد القدرة الإلهية علي ثبج الأمواج المتلاطمة حتى وصل إلي ضفاف الأمان والرحمة الإلهية .

---

١ – تفسير بن كثير ، جـ٢ ، صـ٤٤٦

٢ – تفسير الظلال ، جـ٤ ، صـ١٨٧٨ بتصرف

٣ – الكشاف ، جـ٢ ، صـ٢٧٠

٤ – من بلاغة القرآن ، صـ١٩٢

الفصل الثالث

صورة الجبال في مقام العظة والعبرة

في معرض الحديث عن بني إسرائيل الذين أبوا العمل بأحكام التوراة ووعيد الله تعالي لهم إن لم يقبلوها أن ينتق عليهم جبل الطور ثم يدكه دكاً علي رؤوسهم ، فلما علموا ذلك خروا لله سجدا ، في هذا المعرض يبرز دور الجبل مصوراً ذلك الهلع الذي يخلع القلوب والهول الشديد الذي انتاب هؤلاء عندما رأو الجبل فوقهم وقد رفعته قدرة الجبار جل وعلا، يقول تعالي في هذا الموقف ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ..... ﴾ (الأعراف،آية١٧١) ، وتشبيه الجبل بالظلة يدور حول الإحاطة والشمول والارتفاع والقرب ، وقد فسرت الظلة بالسقيفة عند بعض المفسرين ، بينما هي عند بعضهم تشمل كل ما علا من سحاب وغيره وذلك A لأجل حرف التشبيه ، إذ لولاه لم يكن لدخولها وجه[1] . والعلماء يدخلون هذا التشبيه في باب تشبيه « ما لم تجر به العادة إلي ما جرت به العادة »[2] . وصدقوا إذ ليس مما يعتاده البشر أن يروا الجبل مرفوعا عن الأرض معلقا في السماء ، لكن المعتاد المألوف لديهم أن يجدوا السقيفة أو السحاب فوق رؤوسهم ، وإذا أنعمنا النظر في الآية الكريمة لوجدنا ألفاظها تتضام مع التشبيه في الإبانة عن تلكم الرهبة التي أحدقت بالقوم إبان شاهدوا هذا المنظر الرعيب ، فكلمة « نتق » بما فيها من قوة وشدة تتآخي مع خلع الجبل من الأرض بقدرة الله تعالي الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، كذلك كلمة « فوقهم » فهي كاشفة عن شدة الهلع ، وذلك كما يقول الدكتور أحمد بدوي « يمهد للتشبيه خير تمهيد حتى إذا جاء مكن للصورة في النفس ووطد من

---

١ – تفسير البيضاوي ، وحاشية الشهاب ، جـ ٤ ، صـ٣٩٨

٢ – النكت في إعجاز القرآن ، صـ٨٣ / البرهان في علوم القرآن جـ٣ ، صـ٤٢١ / الإتقان في علوم القرآن ، جـ٢ ، صـ٣٥٨

أركانها ، ومع ذلك فليس التشبيه في الآية عملا إضافيا يمكن الاستغناء عنه ، بل فيه إتمام المعني وإكماله فهو يوحي بالإحاطة بهم وشمولهم والقرب منهم »[1] .

كذلك ورد في مقام العظة والعبرة هذه الآية التي ترد علي الكفار ومكايدهم المستمرة ضد الإسلام ومحاولاتهم النيل منه واجتثاث دعوته يبين الله تعالي أن مكر الكافرين لا يخفي عليه وأنه مطلع عليه ومجازيهم علي ما يدبرون بالعقاب الأليم ، وفي هذا المقام يقول تعالي ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (الرعد،آية ٤٦) وقد صور الله مكر الكافرين وشدته بقوله﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ حيث عبر عن ذلك بكونه معدا لإزالة الجبال لكونها مثلاً في الثبات والرسوخ[2] والجمهور من العلماء علي أن الحرف « إن » حرف نفي واللام في الفعل « لتزول » لام الجحود بينما بعض العلماء يري أن « إن » شرطية ، وأما الإمام الكسائي وهو أحد أصحاب القراءات فقد قرأ وحده بفتح اللام في الفصل « لتزول » علي اعتبار أن « إن » مخففة من الثقيلة ، واللام عنده فارقة بينها وبين النافية عند البصريين وأما الكوفيون فيرون أن « إن » نافية واللام بمعني « إلا » ، ويكون الكلام إثباتا لزوال الجبال من مكرهم والمقصود تعظيم مكرهم[3] وأما المقصود بالجبال في الآية فعلي قراءة الكسائي « يشار بها إلي ما جاء به النبي ﷺ من الحق وفي غيره علي حقيقتها »[4] وتحليل هذا الكلام يقتضي أن تكون الجبال إما استعارة تمثيلية أو استعارة تصريحيه ، فالجبال مضروبة مثلاً للشرائع الإسلامية ودعوة التوحيد في ثباتها وقوتها[5] هذا علي الرأي الأول الذي جعل منها

---

١ – من بلاغة القرآن الكريم ، د / أحمد بدوي ، صـ١٩٩

٢ – من جمال النظم القرآني في سورة إبراهيم ، د/ صلاح الدين محمد أحمد ، صـ٢٦٤

٣ – المصدر السابق ، الصفحة نفسها

٤ – حاشية الشهاب ، جـ٥ ، صـ٤٨

٥ – المصدر السابق ، والصفحة نفسها

استعارة تمثيلية ، وعلي الرأي الثاني تكون استعارة تصريحيه أصلية ، وهذا هو الأرجح في نظري ، حيث لا يوجد في الآية ما ينزع بها نحو التمثيل، فقد شبه الشرائع الإسلامية في رسوخها وثباتها بالجبال ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به ، وهذا رأي من رأيين قال بهما « ابن عطية » - رحمه الله تعالي - في حاشية الشهاب[1] إن الجبال في هذه الآية قامت برسم الصورة رسماً بيانياً عظيماً ، ولولا وجود الجبال في الآية ما ظهرت قوة الشريعة الإسلامية ورسوخها أمام العواصف الهوج التي يثيرها أعداء الدين لكنها لا تهز تلك الشريعة لأنها كالجبال ، وماذا تفعل تلك الأعاصير أمام الجبال الرواسي وما يدبره أعداء الإسلام له إلا كما قال الشاعر :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهِنَها ∴ فلم يضرها وأوهي قَرْنهُ الوَعِلُ

ومثل الآية السابقة التي وردت تحمل العظة والعبرة لكل متأمل جاء قول الله تعالي ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ (الرعد،آية٣١) في مقام الرد علي الكفار ورفض مطالبهم الكاذبة التي جعلوها شرطاً للدخول في الإسلام والله يعلم أنهم كاذبون في دعواهم وسبب نزول هذه الآية ما روي « أن أهل مكة قد قعدوا في فناء الكعبة فأتاهم الرسول ﷺ وعرض عليهم الإسلام فقال له عبد الله بن أمية المخزومي : سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها أو أحي لنا بعض الموتى لنسألهم أحق ما تقول به أم باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون علي ربك من سليمان ، فنزل قول الله تعالي ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ »[2] وسبب النزول هذا يرينا أن الرسول مأمور من ربه ألا ينصاع لتلك المطالب الخادعة المغرورة لأن الواعز إليها هو العناد والجحود ولأن الإيمان لتلبية مطالب لا حد لها

---

١ - المصدر السابق ، والصفحة نفسها

٢ - مفاتيح الغيب ، جـ٩ ، صـ٢٤٦

لا يرضاه الإسلام ولاسيما والله يعلم أنهم لن يؤمنوا ولو لبيت رغباتهم فيكون الإسلام عرضة للاستخفاف والسخرية وهذا لا يكون والمفسرون يقولون في تفسير هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن مقارها وزعزعت عن مضاجعها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ حتى تتصدع وتتزايل قطعاً ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن »[1] وجواب الشرط مقدر بقولهم « لكان هذا القرآن أو لما آمنوا وقيل جوابه مقدم وهو قوله تعالي يكفرون بالرحمن »[2] وهنا نجد أن بلاغة حذف الجواب في الآية أدت إلى اتساع المعني وعمومه ليشمل كل هذه التقديرات ولو ذكر لضاق المعني وتحدد ، لكن القرآن يرمي من وراء هذا الحذف أن يكون مجالاً لكثير من المعاني يريد الإلماع إليها والتنويه بها فضلاً عما في الحذف من تأمل واستدعاء ذهني يتحرك العقل في حلبته لاصطياد المعني وما أكثره وأغزره!

وإذا تأملنا صورة الجبال في الآية الكريمة ألفيناها جاءت ثالث ثلاثة من مطالب القوم الخارقة للعادة والتي لا يقدر عليها إلا الله وقد طلبوها تعجيزاً لمحمد ﷺ وهم يدركون أن الإيمان لا يبني علي هذه الأمور المستحيلة ، بدؤوا بالجبال تسييراً لها وهي جامدة مستقرة في أعماق الأرض وانتهوا بإحياء الموتى وبرغم أن الثلاثة من الأمور الخارقة إلا أنها ليست سواء فهم بدؤوا بالأسهل في نظرهم وختموها بالأصعب في رؤاهم أيضاً وهذا لون من ألوان الترقي ، والبدء بالجبال له وقع في الذهن لا ينسي لأن فيه إشعاراً بقدرة الله تعالي لا يقف أمامها مستحيل لدي البشر أو الجن ففيها جذبة قوية للعقل البشري تريه قدرة الله في فعلها – لو أراد – لكنه سبحانه لا يجعل الإيمان به خاضعا لأهواء الكفرة ومآربهم مهما كان الأمر كما أنه سبحانه خلق الخلق كله وخلق قوانينه ونواميسه الضابطة لحركته ونظامه وهو لا يخرق تلك القوانين تبعاً لرغائب البشر لكنه إن يخرقها فإنما يكون ذلك

---

١ – الكشاف ، جـ٢ ، صـ٢٨٨

٢ – ينظر البرهان للزركشي ، جـ٣، صـ١٨٤ / صفوة التفاسير ، جـ٦، صـ٢٧٩

تبعاً لمشيئته هو وحكمته ، ولذلك نجد أن المعجزات الإلهية المادية لم يعطها الله تعالي لكل أنبيائه لكنه أجري تلك المعجزات وفقاً لحكمتـه هـو علـي يـد مـن شـاء كـإبراهيم وموسـي وعيسي وداود وسليمان ومحمد عليهم السلام .

لقد رسمت الجبال مع المطلبين الآخرين صورة قوية الملامح والتعبير عـن قـدرة الله تعـالي ، وتركت طابعاً لا ينمحي في الذهن ، أن الله تعالي لو شـاء فعـل مـالا يخطـر علـي عقـل بشـر لفعله، وجاء حرف الشرط « لو » في مكانه وموقعه اللائق به كما جاء حذف الجواب حـاملاً في مطاويه دلالات كثيرة ومعاني لو وعاها الإنسان وعقلها لآمن بالله تعالي واطمأن قلبه .

وفي إطار العبرة والعظة ، يأتي قول الله تعالي ﴿وَقِيـلَ يَـا أَرْضُ ابْلَعِـي مَـاءكِ وَيَـا سَـمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيـلَ بُعْـداً لِّلْقَـوْمِ الظَّـالِمِينَ﴾ (هود ، آية٤٤) والآية واردة في سياق العبرة والعظة بما أجراه الله تعالي علي قوم نوح عليه السلام من هلاك تم بهذا الطوفان المدمر الذي جاءت به قدرة الله تعالي ، يتجلي ذلك واضحا في تلك الألفاظ القرآنية وتركيبها علي ذلك النسق المشبع بكـل شـارات تلـك القـدرة الإلهيـة ولنتأمل ذلك الخطاب لتلك الكائنات الأرض والسماء كما يخاطب العقـلاء مـن أهـل التمييـز لأنها كما يقول الزمخشري « منقادة لتكوينه فيها بما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقـلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابـه وقدرتـه علـي كـل مقـدور وتبينـوا تحـتم طاعته عليهم وانقيادهم له»[١] ، وقبل أن نتعرف علي الإبداع البلاغي الذي احتشد بالآيـة احتشادا كبيرا حتى قال العلماء إن بها أحدا وعشرين نوعا من البديع[٢] ناهيـك عـن البيـان والمعاني قبل ذلك يحسن بنا أن نتساءل لماذا ذكر الجودي هنا بديلا عـن الجبـل ؟ والجـواب أن القرآن يقصد تعيين الجبل وأنه ذلك الجبل المسمي بالجودي الموجود بالموصل[٣] مـن أجـل

---

١ – الكشاف ، جـ٢ ، صـ٢١٧

٢ – البحر المحيط ، النهر الماد ، جـ٥ ، صـ٢٢٧

٣ – ينظر القرطبي ، جـ٣١ ، صـ٣٢٦٩ ـ الكشاف ، جـ٢ ، صـ٢١٨

ذلك كان لا مناص من ذكره بذلك الاسم الذي لو أتي لفظ آخر بدلا منه ما سد مسده ، ونداء الأرض والسماء في الآية استعارة مكنية حولت ذلك الكائن المادي إلي كائن ناطق يسمع ويجيب دونما إرجاء أو تقاعس وقد اعتبرها ابن أبي الإصبع من باب ما حذف فيه المضاف وناب المضاف إليه منابه والأصل يا مطر السماء[1] وفي الآية من باب المعاني حذف الفاعل لشدة ظهوره وقوة شهرته في قوله تعالي « قيل » لأن ذلك الحدث الجبار لا يكون إلا من الخالق البارئ جل وعلا أما حذف الفاعل في الفعل « غيض » ففيه الإشارة إلي « الإجابة السريعة فما أن أمرت الأرض بأن تبلع والسماء بأن تقلع إلا وقد غيض الماء وكأن قوة هائلة مجهولة اختطفته وابتلعته فذهب معها في المجهول »[2] أما البديع في الآية فما أكثره وقد أسلفت القول في عدده وحسبنا أن نلفي ابن الإصبع في تحرير تحبيره يستشهد بهذه الآية في باب المساواة والإشارة والإرداف والتغاير وحسن النسق والمجاز والإبداع[3] ، ففي باب المساواة يرد علي من قال بزيادة « القوم » في قوله تعالي ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بأنها جاءت حتى لا يتوهم متوهم أنها للجنس فتعم الظالمين وغيرهم ومن ثم جاء ذكر القوم احتراسا من ذلك التوهم[4] كما ذكرها في باب الإشارة حيث إن في قوله تعالي ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ إشارة «إلي انقطاع مادة الماء من مطر السماء ونبع الأرض وذهاب الماء قبل الإخبار»[5] كما يذكرها في باب الإرداف والتتبع ويعنون به« أن يريد المتكلم معني فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له ويعبر عنه بلفظ هو ردفه وتابعه » ففي الآية الكريمة ـ علي حد قول ابن أبي الإصبع ـ كان المعني الحقيقي علي هذا المكان فعدل عن لفظ المعني الخاص

---

١ – تحرير التحبير ، صـ٤٥٨

٢ – خصائص التراكيب . د/ محمد أبو موسي ، صـ١٣١

٣ – تحرير التحبير ، صـ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٨٩ ، ٤٢٥ ، ٤٥٨ ، ٦١١

٤ – تحرير التحبير ، صـ١٩٨

٥ –تحرير التحبير ، صـ٢٠٢

به إلي لفظ هو ردفه[1] وعلل صاحب هذا الكلام ذلك العدول من لفظ الجلوس إلي الاستواء بأن الاستواء يدل علي التمكن الذي لا زيغ فيه ولا ميل وهو بذلك ييمم بالمعني شطر الكناية حيث القصد إلي لازم المعني وردفه كما يذكر الآية في باب التغاير وما يتفرع منه من المفاضلة بين كلامين مختلفي المعني فيري أن الآية التي معنا أبلغ من قوله تعالي ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل ، آية ٩٠) فالأولي لديه من الطبقة العليا من البلاغة والفصاحة والثانية في الطبقة الوسطي بالنسبة إليها[2] ومع إجلالي لهذا البحاثة في البلاغة فإني لست مع هذا القول الذي ارتآه من تفضيل آية علي أخري في البلاغة وعد واحدة في الطبقة العليا وأخري في الوسطي إن ذلك لا يجري علي القرآن الكريم جريانه في الشعر والنثر فالقرآن الكريم كله طبقة واحدة في البلاغة ولا وجه للموازنة علي الإطلاق بين آيتين فوجود بعض ألوان البلاغة في واحدة لا يجعلنا نقول عن الثانية أقل بلاغة منها لعدم ورود تلك الألوان بها لكن الموازنة التي أراها لا تتجه تلك الوجهة يجب أن يستقصي ما في الثانية من وجوه بلاغية أخري يقتضيها مقامها وقد عرض العلماء لمثل ذلك الاتجاه في موازناتهم البلاغية الصائبة بين آيات القرآن الكريم وقالوا إن التفاوت بين الآيات في المعاني هو مقتض من مقتضيات ذلك التفاوت اللفظي وعلي حد قول القائل « ليست البلاغة أن تتكلف البراعة والتفنن فيما لا يقتضي الحال فيه براعة ولا تفننا وطلب إظهار البراعة في مثله ضرب من الجهالة علي أن هذا حين يقع في المصحف يجيء علي صورته العليا التي لا يمكن أن يقع علي صورة أفضل منها »[3] ، أجل لكل آية بلاغتها اعتدادا بمقامها وسياقها ولا وجه لتفضيل آية علي أخري في البلاغة والفصاحة .

---

١ المصدر السابق ، صـ٢٠٧

٢ – المصدرالسابق ، صـ٢٨٩

٣ – ينظر كتاب الإعجاز البلاغي ، د/ محمد أبو موسي ، صـ٣٨٠

ولنرجع إلي الصواب عند ابن أبي الإصبع لنراه يستشهد بتلك الآية الكريمة في باب حسن النسق ويبين ما اشتملت عليه من مزايا الترتيب في مفرداتها علي الوجه الذي تقتضيه البلاغة ولقد كان بارعا ماهرا فيما عرضه واستنبطه وأخيرا يذكرها في باب الإبداع ويعني به اشتمال الجملة عدة ألوان من البديع وقبل أن يحلل بيراعه البلاغي هذه الآية يقول عنها « وما رأيت في جميع ما استقريت من الكلام المنثور والشعر الموزون كآية كريمة من كتاب الله تعالي استخرجت فيها أحدا وعشرين ضربا من المحاسن »[1] ثم يستعرضها بأن فيها « المناسبة التامة بين « أقلعي وابلعي » والمطابقة بذكر الأرض والسماء والمجاز في قوله « يا سماء » والاستعارة في قوله «أقلعي » والإشارة في قوله تعالي « وغيض الماء » والتمثيل في قوله تعالي « وقضي الأمر » والإرداف في قوله تعالي « واستوت علي الجودي » والتعليل لأن غيض الماء علة الاستواء وصحة التقسيم إذ استوعب الله تعالي أقسام أحوال الماء حالة نقصه والاحتراس في قوله « وقيل بعدا للقوم الظالمين » والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد علي معناها وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعني لأن كل لفظة لا يصلح موضعها غيرها والإيجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة والتسهيم لأن أول الآية يقتضي آخرها . . . إلخ »[2] وهذا التبحر من ذلك العالم في استخراج آلاء تلك الآية قمين بالإعجاب والحبور لاسيما عندما نعرف أن ابن المقفع وهو واحد من فحول القول « رام أن يعارض القرآن فنظم كلاما وجعله مفصلا وسماه سورا فمر يوما بصبي فسمعه يقرأ الآية فرجع إلي بيته ومحا ما كان قد بدأ به وقال أشهد أن هذا لا يعارض أبدا وما هو من كلام البشر »[3].

١- تحرير التحبير ، صـ٦١١

٢ - المصدر السابق ، صـ٦١٢ ، ٦١٣ بتصرف

٣ - روح المعاني ، جـ١٢ ، صـ٦٣

الفصل الرابع

صورة الجبال في أهوال يوم القيامة

في صور... تحدث عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من فناء ذلك الكون المادي الذي نعيش فيه ... الله تعالي ... الأرض يوم الساعة زلزلت زلزالها ، والجبال نسفت ، والنجوم انكدرت وتكورت في هذا الموقف يتحدث القرآن عن إحدى الصور التي تكون عليها الجبال في أول بدايات الساعة ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المعارج ، آية ٩)وفي سورة القارعة ﴿وَتَكُون الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمنفُوشِ﴾ (القارعة ، آية ٥) ، ويفسر الشيخ الألوسي رحمه الله ـ هذه الصورة قائلا «وتكون الجبال كالعهن ، كالصوف دون تقييد أو الأحمر أو المصبوغ ألوانا وهذه أقوال واختار جمع من العلماء الأخير وذلك لاختلاف ألوان الجبال فمنها جدد بيض وحمر و غرابيب سود . فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن أي المنفوش كما في القارعة إذا طيرته الريح وعن الحسن تسير الجبال مع الرياح ثم تنهد ثم تصير كالعهن ثم تنسف فتصير هباء »[١] وقد وضح الشيخ أن صور الجبال التي وردت في القرآن الكريم تابعة لأطوار تجري عليها ومراحل تمر بها ولذلك اختلفت صورتها من طور لآخر ولا شك أن وجه الشبه يتمثل في التطير واختلاف الألوان وتفرق أجزاء الجبال وما جاءت كلمة المنفوش في سورة الواقعة إلا لتؤكد علي تفرق أجزائها وتقطيعها قطعا واهية كالصوف المندوف[٢] ، وهذا تشبيه محسوس بمحسوس ، وجماله – كما تري – يكمن في تصويره الجبال ـ يوم الساعة ـ « وقد صارت هشة لا تتماسك أجزاؤها هنا يرسم القرآن حالة الجبال يوم القيامة عندما تصير هشة لا تتماسك ذراتها وفي نفس الوقت يرمي القرآن الكريم إلي هز النفس بتصوير أقوي الأشياء لها في صورة لينة تدعو إلي السخرية من

---

١ – روح المعاني ، جـ٢٩، صـ٧٣

٢ – ينظر حاشية الشهاب ، جـ٨ ، صـ٣٤٣ / الكشاف ، جـ٤ ، صـ٢٣٠

عظمتها الحالية وتأخذ بيد المتأمل إلي الإيمان بخالق ثابت لا يتغير »[١] ، ولا يقف سر التشبيه في الآية إلي هذا الحد بل يجوز بنا إلي ما يقذفه في القلب من إحساس بالوجل الشديد من أهوال يوم القيامة التي تحرك الإنسان إلي العمل الحثيث للنجاة من تلك الأهوال المتلاطمة التي تجعل الجبال كالعهن المنفوش .

وفي معرض الحديث عن يوم القيامة وأهوالها وما يحدث فيها من تغيير وانقلاب في هذا النظام الكوني لحياتنا الدنيا ، يقول الله تعالي واصفا ما يحدث للجبال ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (النمل ، آية ٨٨). والآية مصورة لهذا الحدث أصدق تصوير حيث تبدو الجبال التي يظنها من ينظر إليها جامدة ، تبدو في الحقيقة وهي تسير سيرا حثيثا كالسحاب ، وعلة ذلك كما يقول العلماء « أن الأجرام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها كما يقول النابغة الجعدي في صفة جيش :

بأرْعَنَ مثلَ الطودِ تحْسب أنهم ∴ وقوف لحاج والركاب تهملج [٢]

وقيل شبه مرورها بالسحاب في كونها تسير سيرا وسطا كما يقول الأعشي :

كأن مشيتها من بيت جارتها ∴ مر السحابة لا ريث ولا عجل [٣]

ويذكر الإمام أبو حيان أن وراء سيرها سير السحاب سببا آخر هو شدة الهول في هذا اليوم التي لا تجعل للذهن ثبوتا ولا تركيزا من شأنه أن يجعله يتحقق من كونها جامدة » وقد استعرض هذا العلامة أطوار الجبال وأحوالها يوم القيامة ورجعه كما يقول « إلي تفريغ الأرض منها وإبراز ما كانت تواريه ، فأول هذه الصفات ارتجاجها ثم صيرورتها كالعهن المنفوش ثم كالهباء بأن تتقطع بعد أن كانت كالعهن ، ثم نسفها وهي من الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها ، والأرض غير بارزة وبالنسف برزت ، ونسفها

---

١ – الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ، صـ١٧٥

٢ – الكشاف، جـ٣ ، صـ١٥٤ / البحر المحيط ، جـ٧ ، صـ١٠٠

٣ – البحر المحيط ، جـ٧ ، صـ١٠٠

بإرسال الرياح عليها ثم تطييرها بالريح في الهواء كأنها غبار ، ثم كونها سرابا ، فإذا نظرت إلي مواضعها فيها شيئا كالسراب ، وقال مقاتل بل تقع علي الأرض فتسوي بها »[١] ولقد أجاد العلامة أبو حيان عرض تلك الخطوات والأطوار التي تمشي بها الأرض لكن ترتيب هذه الأطوار علي بعضها نوع من الاجتهاد عليه ملاحظات ، فكيف تكون الجبال قارة في مواضعها يعد أن صارت كما يقول هو كالعهن المنفوش والهباء ، ولا أخالها وقد صيرها الله تعالي بقدرته إلي هذه الحالة إلا وقد انفصلت عن الأرض وتفتت قطعا وجزيئات صغيرة حتى لا يكون لها وزن كالعهن والهباء ، والتشبيه هنا تشبيه بليغ حذف منه الأداة ووجه الشبه وذلك لأن المشبه مصدر محذوف والمشبه به مصدر مبين للنوع[٢].

ومن مظاهر التغير والتحول يوم القيامة صورة الجبال وقد أصبحت هباء منبثا وكثيبا مهيلا وسيرت فكانت سرابا ، وكل هذه أطوار تمر بها الجبال كما سبق أن بينها الإمام أبو حيان ـ رحمه الله ـ وهذا يتسق مع ذلك اليوم القمطرير الذي تتبدل فيه الأشياء إلي نقيضها ، فالأرض تبدل غير الأرض والسماوات ، يصور القرآن الكريم هذه الأطوار في قول الله تعالي ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا﴾ (الواقعة ، آية ٥،٦) ، وفي قوله تعالي ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ (المزمل ، آية ١٤) وفي قوله تعالي ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (النبأ ، آية ٧) فهذه الآيات الثلاث تتلاقي في كونها تبين مصير الجبال في ذلك اليوم المهيب وتحولها إلي كثيب مهيل والي هباء والي سراب ، ومرد ذلك إلي الأهوال وتتدرجها من البداية إلي النهاية حيث تصير في أعلي درجاتها ، ففي الآية الأولي تشبيه الجبال بالغبار المنتشر والجامع بينهما مطلق التفرق والهوان والضعف ، أفرأيت إلي الهباء المنثور مع أشعة الشمس كيف يكون دورانه في كل اتجاه وهو مع كثرته حقير ضئيل مبعثر لا يحفل به أحد ؟، أما الآية الثانية فصورة الجبال تشبه الكثيب المنتشر من الرمال وهي لا

---

١ – البحر المحيط ، جـ٧ ، صـ١٠٠

٢ – ينظر البلاغة التطبيقية ، د – أحمد موسي ، صـ٢٣

تكون علي تلك الحالة إلا إذا تفتت وتحطمت وهي حالة سابقة ـ في رأيي ـ للحالة الأولـي في سورة الواقعة حيث إن التصدع سابق لحالة الـدوران في الفضـاء ، ومـع ذلـك فالتشـبيه مـوح بالتبعثر والتفرق ، والقاضي الشهاب يقول في حاشيته « أي صـارت ككثيـب انتثـر وكونـه كثيبا باعتبار ما كان عليه قبل النثر ، فلا تنافي بين كونه مجتمعا ومنثـورا »[1] , وفي قولـه تعالي ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ نري صورة الجبال بعـد أن يشـتد هـول السـاعة ويعظم خطبها ، قال الإمام الطبري «صارت الجبال بعـد نسـفها هبـاء منبثـا لعـين النـاظر كالسراب الذي يظنه من يـراه مـاء وهـو في الحقيقـة هبـاء »[2] وهـو بهـذا التفسـير يجعـل السراب هباء وعلي هذا يكون كلاهما أمرا واحدا لكني أري ثمة فرقا بين كون الجبـال هبـاء وكونها سرابا ولا تتضام الاثنان إلا علي سبيل التجوز ولذلك يقول الإمام القرطبي في تفسـير السراب في هذه الآية A أي لاشيء كما أن السراب كذلك يظنه الرائي مـاء ولـيس بمـاء »[3] والزمخشري بعد أن يفسر السراب بالهباء يقول « يعني أنها تصير شيئا كـلا شـيء لتفـرق أجزائها وانبثاث جواهرها »[4] وعلي كلا الرأيين ففي الآية تشبيه بليـغ محـذوف الأداة ، ووجه الشبه وحذف الاثنين يقرب المسافة جدا بين المشبه والمشبه بـه حتـى كأنهمـا صـارا شيئا واحدا لا يستطيع الناظر أن يفرق بينهما .

---

١ – حاشية الشهاب ، جـ٩ ، صـ٢١٢

٢ – تفسير الطبري ، جـ٧ ، صـ٧٠ ، نقلا عن صفوة التفاسير

٣ – تفسير القرطبي ، جـ٧١ ، صـ٦٩٦٧

٤ – الكشاف ، جـ٤ ، صـ١٧٨

الخاتمة

لتكن خاتمة هذا البحث لافتة إلي ما عن لي خلال تطوافي البلاغي وتأملاتي في جوانب التصوير القرآني للجبال وهي كالآتي :-

١- إن تصوير القرآن الكريم للجبال جاء دقيقا ـ كالعادة ـ شاملا لكل أبعاد الصورة وظلالها فأحيانا ينحو التصوير القرآني منحى بيانيا وأحيانا يسلك بنا في شعاب التصوير بالكلمة ووميضها والأساليب وإشعاعاتها وما كان اختلاف التعبير القرآني عن الجبال في أسمائها حيث عبر عنها بالجبل مرة وطوراً بالطور والطود والرواسي ، ما كان ذلك الاختلاف عفوا بل قصد إليه التعبير القرآني حيث جاءت كل لفظة من تلكم الألفاظ موائمة لسياقها والموقف الذي سيقت فيه حيث لا يتأتي أن يغني عنها مرادفها في مكانها.

٢- إن التصوير القرآني للجبال قد استغرقها في منافعها وجدواها التي خلقها الله تعالي من أجلها فوق هذه الأرض وحسبنا أن نري القرآن الكريم قد سبق الحقائق العلمية في إشاراته المتكررة إلي أن هذه الجبال قد جعلها الله تعالي رواسي لتلك الكرة الأرضية كيلا تميد وتضطرب ناهيك عما بثتها يد القدرة الإلهية فيها من كنوز وثروات.

٣- إن تصوير القرآن الكريم للجبال في مواطن الدلالة علي القدرة الإلهية العجيبة وعلي تصرف هذه القدرة فيها يوم القيامة إنه تصوير مثبت لإيمان المسلم داعم ليقينه التام بالله تعالي خالقا مصورا بديعا للسماوات والأرض.

٤- ويتبع ذلك أن القارئ لهذه الآيات المصورة يخرج من دائرتها مترع القلب والوجدان بخشوع وإجلال وفيض متدفق من الإعجاب الشديد وهيبة واندماج روحي بل وذوبان وجداني كامل مع ذلك التصوير الجليل البديع الذي يهيمن علي أقطار النفس المسلمة وهذا الشيء لا يحسه القارئ إلا مع ذلك الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والله أسأل أن ينفعنا بكتابه وأن يجعلنا من خدمته وحراسه وأن يرزقنا العلم بمحكمه ومتشابهه .

الباحث

المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، دار الفكر ، ط أولي ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م.

٢- أساس البلاغة للزمخشري ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٣- الأسطوانة الألفية للشعر العربي ، الحاسب الآلي.

٤- الإعجاز البلاغي ، د/ محمد أبو موسي ، مكتبة وهبة ، ط٢ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧ م

٥- جريدة الأهرام ، القاهرة.

٦- البحر المحيط للإمام الجرجاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان ، ط ثانية ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م.

٧- البرهان في علوم القرآن للزركشي ، مكتبة دار الجيل ، لبنان ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

٨- البلاغة التطبيقية ، د/ أحمد موسي ، مطبعة المعرفة ، ط أولي ، ١٩٦٣م.

٩- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د/ فاضل صالح السامرائي ، دار عمار ، عمان ، ط ثانية ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م.

١٠-تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ، المجلس الأعلي للشؤن الإسلامية ، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٥م.

١١-تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير ، دار التراث ، القاهرة.

١٢-التكرار بلاغة ، د/ إبراهيم الخولي ، إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٩٣م.

١٣-ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ، ط رابعة ، دار المعارف.

١٤-الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ، دار الشعب.

١٥-حاشية الشهاب علي البيضاوي للقاضي شهاب الدين ، دار الكتب العلمية ، لبنان.

١٦-خصائص التراكيب ن د/ محمد أبو موسي ، مكتبة وهبة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م.

١٧-دراسات جديدة في إعجاز القرآن الكريم ، د/ عبد العظيم المطعني ، مكتبة وهبة ، ط أولي ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.

١٨-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق الشيخ محمود شاكر ، الهيئة العامة للكتاب.

١٩-روح المعاني للإمام الألوسي ، دار الفكر.

٢٠-صفوة التفاسير للشيخ علي الصابوني.

٢١-الصورة البيانية بين النظرية والتطبيق ، د/ حفني شرف ، مكتبة نهضة مصر ، ط أولي ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م.

٢٢-الطراز للعلوي، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط أولي ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م.

٢٣-علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي ، دار الدعوة ، ط رابعة ، ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠٢م.

٢٤-في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ، دار الشروق.

٢٥-الكشاف للزمخشري ، المكتبة التجارية ، ط أولي ، ١٣٥٤ هـ.

٢٦-المثل السائر لابن الأثير ، ط أولي ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، دار الكتب العلمية ، لبنان.

٢٧-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، المطبعة الإسلامية ، إسطنبول ـ تركيا.

٢٨-مفردات الراغب ، دار الخلود للتراث.

٢٩-مفاتيح الغيب للإمام الرازي ، دار الغد العربي ، القاهرة.

٣٠-من بلاغة القرآن الكريم ، د/ أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة.

٣١-من جمال النظم القرآني في سورة إبراهيم ، د / صلاح الدين محمد ، ط أولي ، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م ، دار الطباعة المحمدية.

٣٢-ملاك التأويل لأبي جعفر الغرناطي ، تحقيق د/ محمود كامل ، دار النهضة.